العمق الدلالي في تائية دعبل

م.م.فاتن فاضل كامل
كلية التربية /صفي الدين الحلي

دعبل الخز اعي شاعر متقدم مطبوع اسمه محمد بن علي بن رزين الخز اعي، أما دعبل فلقب لقب به.[1] ولّد في الكوفة عام 148 ونشأ فيها،وهو ينتمي لأسرة دعا النبي صلى الله عليه واله وسلم لجدّها الأعلى بالسؤدد وكان أبناؤها من فرسان العرب المسلمين،استشهد أحدهم على عهد رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وأربعة منهم مع أمير المؤمنين عليه السلام في صفين.[2]

وقد تفتحت مواهبه الشعرية باكرا، وكان للمجالس الأدبية التي شارك فيها دعبل الدور الأكبر في صقل ذوقه الأدبي ونيله مكانة علمية متقدمة ،حتى روي عن المبرد تقبيل يديه تعظيما له وإعجابا بشاعريته ومكانته العلمية ،[3] فهذه المجالس الادبية (قد صقلت ذوقه الادبي وساعدته على ان يبدع شعرا متقدما)[4].

وكان لقبيلة خزاعة التي اشتهرت بالشعر وولائها للنبي و اله،و لنشأته في الكوفة التي كانت مستقرا لعلماء الحديث و اللغة والفقه وموطن ثورة دائمة في العهد الأموي ومحفلا للأفكار السياسية بعد أن أصبحت كطائر حبيس في العصر العباسي ،الدور الأكبر في جرأة دعبل وشجاعته و صراحته وصرامته في الحق.[5]

والشاعر أحد أعلام الشعراء ،كما عرف عنه روايته للأخبار وتصنيفه لكتابين مهمين هما(طبقات الشعراء ، والواحدة في مثالب العرب ومناقبه)[6] ،وقد صب جم شعره في مدح آل البيت عليهم السلام والتوجع لما حل بهم من ظلم وجور وما نالهم من أذى وتعداد مناقبهم والدفاع عن حقهم المسلوب ورثائهم ،وكان شاعرا معروفا بولائه لهم ملتزما جانبهم فلم يؤثر على حبهم مالا أو سلطان في الوقت الذي كان فيه مهاجما للخلفاء و الأمراء من أعدائهم بشعره هجّاء لهم فلم يسلم من هجائه أحد، وربما كان ذلك السبب الأول لضياع شعره الكثير الذي لم تحفظ الأيام منه سوى النزر اليسير.

وقد عاش دعبل حياته ملتزما بحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى (يغلب على الظن ان الرجل تلقى في طفولته حب أهل البيت فصار حبهم كاللحن القديم الذي يسمعه الإنسان وهو طفل فيظل يلاحقه بأنغامه وهو كهل)[7]،وقد مكنه من ان يكون شاعرا ملتزما مزايا عدة منها رؤيته النافذة إلى جواهر الأمور، وقدرته على تجسيد هذه الرؤية في لغة شعرية كاشفة ساخرة ، وجرأته على قول هذه اللغة ونشرها والثبات عليها مهما كلفه ذلك من مشاق ،وكانت قصائده مرآة لمشاعر المجتمع وأفكاره وخلجاته ففي شعره صور حية ناطقة عما يحس به مجتمعه من الآم و نكبات ،فقد كان دعبل مرهوب اللسان وذا شاعرية فذة متمردة ثائرة وشعره عميق الصلة بنفسه الجياشة المتمردة على الواقع و بتجربته المريرة فلم يغرب في شعره و لم يوغل في الصنعة و البديع بل امتاز بدقة الوصف أو المعنى .[8]

---

[1] -ينظر :الأغاني ،ابو لفرج الاصبهاني ،دار الثقافة ، بيروت ، ط 2 ، 1961 :20 / 71 .
[2] -ينظر:الغدير في الكتاب والسنة ،عبد الحسين الاميني ،مركز الغدير ،بيروت،ط1995،1 :2/514-516 .نقلا عن دراسات
[3] طبقات الشعراء ،ابن المعتز ،دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1968: 264.
[4] ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، تحق : ابراهيم الاميوني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1989 : 23 .
[5] ينظر : دراسات في التراث الأدبي ، عبد المجيد زراقط ،الغدير ، بيروت ، ط 1، 1998 : 119 .
[6] ديوان دعبل بن علي الخزاعي ،تحق : عبد الصاحب عمران الدجيلي ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،ط 2 ،1972 : 25.
[7] المدائح النبوية في الأدب العربي ،زكي مبارك ،دار الجيل ،بيروت ،ط 1 ،1992: 96.
[8] ينظر : دراسات في التراث الأدبي :133.

وتائية دعبل قصيدة طويلة ألقاها بين يدي الإمام الرضا عليه السلام في خراسان عند توليته الخلافة وكان تأثيرها بليغا فيه لما فيها من من التحزن والتفجع، فقد اعدّ ها بدافع من شعوره الملتهب وحزنه الدائم على ما أصاب أهل البيت في مختلف ديارهم و أدوارهم من نكبات و كوارث، وهي (اشهر من الشمس)[9].

وتائيته خير ما قيل في رثاء أهل البيت عليهم السلام والانتصار لهم فهي تمتاز بصدق العاطفة وقوة التأثير،و العاطفة في العمل الأدبي (هي إحساس من نوع خاص تم التعبير عنه بصياغة جمالية ذات محتوى رمزي)[10]،ويمكن عدها أهم عناصر الأدب و أكثرها تأثيرا،[11]وقد قرن القدماء العاطفة بالانفعال وعدّوها أساسا لقول الشعر بأغراضه المتعددة،إلا انها في الرثاء اصدق وأقوى فهي إحدى دوافعه وبفضلها كان الرثاء أجود أشعار العرب .[12]

وفي تائية دعبل تصوير مبدع للعواطف الإنسانية ووصف للفاجعة التي ألمّت بالأمة الإسلامية بفقدهم وتذكر خصالهم وتعداد مناقبهم ووصف أخلاقهم العالية بازاء هجاء أعدائهم وتعداد مثالبهم وذم أخلاقهم والتنديد برذائلهم، ولاسيما انهم ممن كان دؤوبا في هجائهم و تعداد مثالبهم،إذ كان يرى ان اغلب الناس ميالون إلى الظلم منحرفون عن الحق ولا يصح ان يتعامل الشاعر معهم بغير العنف وان كيان الشاعر ومكانته لا يبنيان بالمديح وتقبيل الأيدي ومداراة زمر هؤلاء المنحرفين عن الحق ،ولذ افقد اتخذ الهجاء وسيلة لأقامة هذا الكيان وفرضه عليهم ومواجهتهم بواقعهم بكل جرأة وشجاعة ، ولم يكن هجاؤه لأعدائهم بدافع شخصي تكسبي،[13] بل (كان يمثل رؤية إلى التاريخ، وينتظم في سياق حركة دينية سياسية اجتماعية كانت تجري ، وكان له موقعه منها ودوره فيها)[14].

لقد اشتملت تائية دعبل على عدة ثنائيات ضدية تلتقي جميعها في ثنائية ضدية كبرى استخدم فيها شاعرنا آلية التضاد لتحقيق العمق الدلالي ،ويمثل الطرف الأول من هذه الثنائية آل رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وصفاتهم ومناقبهم وحقهم السليب وظلامتهم المتكررة وهم أهل الفضائل والمناقب ،ويمثل طرفها الثاني أعداءهم وغاصبي حقهم والواقع المرير الكامن في إمساكهم بزمام الأمور مع مالهم من مثالب يندى لها الجبين.

وتدور أغلب معاني الرثاء عادة في (التفجع على الميت و إبداء الحزن على فراقه ، و تصوير الخسارة عن فقده)[15]،إلا ان اقتران الرثاء بالحزن على الميت لا يعني انه الجانب الوحيد ففيه جانب اخروهو مديح الميت بتذكر حسناته و حسن أفعاله،وتعداد فضائله الخلقية ،فالرثاء مدح حزين ولا فرق بينه و بين المديح سوى في المعنى ،[16] وقد عدّه القدماء ضمن غرض المدح .[17]

فالرثاء فن قائم في اصله على الثنائيات، لذا(فالطباق يناسب الرثاء في العادة ،لان من شان الرثاء ان يقارن بين ما كان وماهو كائن ،ويتأمل الحاضر ويقارنه بالماضي ،مما يتطلب استدعاء عدد من هذه الثنائيات الضدية المتصلة بأحوال المرثي سواء أكان شخصا أم مدنية أم غيرهما)[18] .

ولأن طرفا التضاد في تائية دعبل على طرفي نقيض فالممدوح المرثي يمثل الحق كله وأعداؤه الباطل كله،لذا فقد قامت بنية القصيدة على ثنائيات متقابلة بالتضاد، فالخير مقابل الشر،والحق مقابل الباطل،والايمان مقابل الكفر.وتمتزج هذه الثنائيات مع عواطف الحب مقابل البغض، والحزن بازاء الفرح... ذلك ان الوظيفة الجوهرية للشعر التعبير عن الأحاسيس ونقلها إلى المتلقي أما عن طريق بعثها لتلك الأحاسيس في نفس المتلقي ،أو بالتأثير في عواطفه ومشاعره مباشرة بسبب ما تتمتع به الألفاظ من قدرة على استدعاء المشاعر والمواقف الانفعالية التي ترتبط بها لدى الشاعروالمتلقي .[19]

---

[9] طبقات الشعراء :267.
[10] النص الأدبي تحليله وبناؤه ،ابراهيم خليل ،الجامعة الاردنية ،عمان ، ط1995،1 :55.
[11] ينظر: أصول النقد الأدبي ،احمد الشايب ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،ط 7 ، 1964 : 31.
[12] ينظر:البيان والتبيين ،ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحق :عبد السلام محمد هارون، الخانجي ،القاهرة ،ط 5 ، 1985: 220.
[13] ينظر : العصر العباسي الاول ، شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة ، ط 6 ، 1976 :324 .
[14] دراسات في التراث الأدبي : 160.
[15] ينظر :شعر الرثاء في العصر الجاهلي ،مصطفى عبد الشافي ،الدار الجامعية ،بيروت ،1983 : 7.
[16] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام ،بشرى محمد علي الخطيب ،كلية الآداب ،جامعة بغداد ،1971 .
[17] ينظر: العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق ، تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط 4 ، 1972 : 1/121.
[18] قراءات في الشعر الأندلسي ،صلاح جرار ،دار الميسرة ، ط 1 ، 2007 : 129.
[19] ينظر : النص الأدبي تحليله وبناؤه : 49.

ويعد التضاد من أهم عوامل الإبداع الشعري ،وقد اقترن هذا اللفظ بالطباق قديما ،فقد ذكر (التضاد ،والتكافؤ ،والطباق ،وهو ان يؤتى بالشيء وبضده في الكلام)[20] ،الا انه لا يقتصر على الطباق فحسب بل ينسحب مفهوم التضاد ليشمل المقابلة التي تعد طباقا متعددا (فالمقابلة :ان يؤتى بمعنيين متوافقين ،أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب)[21]،إلا ان التضاد أوسع في الدلالة على الخلاف من الطباق والمقابلة ، [22]فهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام سواء أكان

ذلك طباقا بين الألفاظ أم مقابلة بين الصور . [23]

وللجمع بين الأمور المتضادة مغزى جميل فهم (يكسو الكلام جمالا ويزيده بهاء ورونقا)[24]، وبالأخص إذا جاء به المنتج لطيفا مع ما فيه من تعبير عن أفكار المنتج وعواطفه ، ذلك ان للتضاد قدرة(على اثارة مشاعر حيويةتتصل بالفكرة العامة للموقف داخل السياق الأسلوبي)[25]، وان في المطابقة شعبا خفية (وفيها مكامن تغمض وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف).[26]

ولا تقتصر أهمية التضاد على الزينة والزخرف (بل يتجاوز ذلك إلى أهداف أسمى وغايات لا تتناهى)،[27] ذلك ان التضاد وسيلة إثراء للنص بما يضفيه من معرفة وما يمنحه من عمق دلالي، كما ان له القدرة على إبراز المعاني واضحة جلية (فاللفظة في حالة مقابلتها بما يضدها تكتسب عمقا دلاليا ودقة معنوية لا تكون لها منفردة، فنحن اكثر إدراكا لمعالم السواد ومواصفاته إذا وضع بازاء البياض واكثر إدراكا لمعنى الضحك إذا وضع بازاء البكاء ولمعنى الحب إذا وضع بازاء البغض والكراهية)[28]

وقد اشتهر دعبل بهذا الفن في شعره بأسره (وقدم مقطوعة تتضمن المعنى البديعي الطريف المتمثل في ثنائية التضاد :الضحك والبكاء)،[29]وذلك في قوله :[30]

لاتعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

ويشكل الطباق ملمحا اسلوبيا بارزا في شعره لكونه من اكثر الأدوات التعبيرية التي وظفها الشاعر لتوصيل أفكاره ورصد رؤياه على الصعيد الدلالي ،وقد كانت لدعبل ريادته في التجديد بفعل البناء المتماسك الذي تميز به شعره ،والتجديد البديعي الذي برع فيه،والمقابلات التي كانت يجريها في شعره لإثارة المفارقات وتمثل المعاني العميقة فيه. [31]

وقد أقام دعبل تائيته على أساس من الثنائيات المتضادة التي تمتاز بقيمتها الفنية المعنوية،فهذا (التركيب الضدي العام والجدلية التي تتخلله ،تصبح منطلقا لوعي نقدي اعمق لا يكتفي بمحاولة فهم الظواهر الفنية من حيث هي الحركة على سطح أفقي ،بل يغوص على بنيتها الضدية ليجلو طبيعة الفاعلية التي تتراشق فيها)[32].

وقد استخدم دعبل التضاد بكثرة في تائيته وذلك لاتفاقه وطبيعة موضوعها القائم على المعارضة والنقض من جانب ولارتباطه بذاته ومعاناته النفسية وتجربته الشعرية من جانب آخر، فاستعان به الشاعر للإحاطة بما يشعر به وإبراز المعاني المتناقضة التي يعيشها وحالة الأسى التي يعانيها .فقد عاش دعبل في وقت كان التعلق بال البيت والولاء لهم جريمة يحاسب عليها ويعاقب صاحبها بالسجن والقتل ولا سيما إذا تجاوز الأمر التعلق

---

[20] - الطراز ،العلوي ،مراجعة وضبط محمد عبد السلام ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط1 ،1995 : 383.
[21] - علم البديع ،بسيوني عبد الفتاح ، مؤسسة المختار ،القاهرة ،ط2 ،2004 : 126.
[22] - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، احمد مطلوب ، دارالشؤون الثقافية ، بغداد ، 1983 : 2/253 .
[23] -.ينظر : جمالية التشكيل اللوني :410
[24] علم البديع :113
[25] نحو منهج ، سناء البياتي ،جامعة قان يونس ،بنغازي ، ط 1 ، 1998 : 123.
[26] الوساطة بين المتنبي وخصومه :القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ،تحق: محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، ، مصر ط 4 ،1966: 44.
[27] علم البديع : 114.
[28] -نحو منهج جديد : 127.
[29] دراسات في التراث الأدبي : 124.
[30] الأغاني :20 /125.
[31] ينظر : دراسات في التراث الادبي: 165- 174 .
[32] جدلية الخفاء والتجلي ، كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 1 ،1979 :10 .

الوجداني إلى التعبير عنه شعرا لذا فقد اختلطت شجاعة دعبل وجرأته بالخوف مما يتهدده،[33] ذلك ان اقتتال الحق والباطل،واصطراع الهدى والضلال لا يكون إلا في النفوس القوية التي تدرك كيف يكون اصطدام العقول وتصاول الآراء.[34]

ولذا فقد جعل الشاعر آلية التضاد أساسا لبناء القصيدة ليشير بذلك إلى ما هو كامن وراء أبياتها(فكثيرا ما يأتي التضاد ليعزز الدلالة في النص حيث يكون بين شيئين يتضادان في الظاهر ويلتقيان في العمق)[35].

وينوع دعبل في منزلة المتقابلين في تضاده فاما ان يجمع المتضادين فيكون الضد بازاء الضد الآخر في بيت واحد او في بيتين ،أوان يكون السياق جامعا للضد ين .

أما في الحالة الاولى فيجمع المتضادين في بيت واحد ويكون المتقابلين مفردين بين الصدر والعجز ،فقد يقدم الفكرة المرادة من التضاد في قصيدته في مصراع واحد كما هو الحال في أول قصيدته :

تجاوبن بالارنان والزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

أو من خلال توزيع المتضادين على مصراعي بيت واحد نحو قوله :

وللخيل لما قيد الموت خطوها فأطلقتم منكم بالذربات

أو على مصراعي بيتين نحو قوله :

ليالي يعدين الوصال على القلى ويعدي تدانينا على الغربات

وإذ لهن يلحظن العيون سوافرا ويسترن بالأيدي على الوجنات

ولهذا الاختلاف المعنوي أثره الواضح في تحقيق التوافق الدلالي الذي يجعل التضاد اكثروضوحا وتأثيرا .وقد يأتي بما يأتي مستوفيا صور التضاد كلها في هذه الحالة .[36]

ـ الضد في حشو الصدر وضده في نهايته نحو قوله :

وما طلعت شمس وحان غروبها وبالليل ابكيهم ، وبالغدوات ـ الضد في حشو الصدر وضده في أول العجز نحو قوله :

فان قرب الرحمن من تلك مدتي وأخر من عمري بطول حياتي

وقوله :

سوى حب أبناء النبي ورهطه وبغض بني الزرقاء والعبلات

ـ الضد في حشو الصدر وضده الآخر في آخر العجز نحو قوله :

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم أكفا عن الأوتار منقبضات ـ الضدين في وسطي الصدر والعجز نحو قوله :

هم منعوا الآباء عن اخذ حقهم وهم تركوا الأبناء رهن شتات

ـ الضد في حشو الصدر وضده في الصدر نفسه،ويكون الضد الآخر في حشو العجز وضده في آخره نحو قوله :

ليالي يعدين الوصال على القلى ويعدي تدانينا على الغربات

وقوله :

رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة وردت أجاجا طعم كل فرات

ـ الضد في أول العجز وضده الآخر في نهايته نحو قوله :

افاطم قومي يا ابنة الخير واندبي نجوم سماوات بأرض فلاة

وقوله:

حمى لم تزره المذنبات ،واوجه تضيء لدى الأستار في الظلمات

ـ الضدين متعاطفين في آخر الصدر، نحو قوله في أول تائيته :

بنفسي انتم من كهول وفتية لفك عناة أو لحمل ديات

أو قوله :

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع قلبي إثرهم حسرات

ـ الضدين متعاطفين في أول العجز ، نحو قوله:

---

[33] ينظر : دراسات في التراث الادبي :143

[34] ينظر : المدائح النبوية في الأدب العربي :97.

[35] نحو منهج جديد :123.

[36] ينظر :النقائض في العصر الاموي ،جعفر صادق التميمي ،دار الكتي والوثائق ، بغداد ، 2008 : 134.

ألم تر اني من ثلاثين حجة أروح واغدو دائم الحسرات ـ الضدين

متعاطفين في آخر العجز ، نحو قوله في أول تائيته :

تجاوبن بالارنان والزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

يخبرن بالأنفاس عن سر انفس اسارى هوى ماض واخر آت

ـ الضدين متعاطفين في آخر الصدر وفي آخر العجز معا نحو قوله :

يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

اما عن ورود التضاد في السياق- وأكثره ورودا فيه ـ فقد بنى دعبل معظم السياق على التقابل بالتضاد معبرا من خلال هذا ا البناء عن أفكاره وعواطفه ، فالسياق مجهود إبداعي يصد رعن المبدع وله قيمة فنية معنوية كبيرة ،[37] وقد وجد دعبل في المقابلة بالتضاد معينا لا ينضب ،فهو ينتقل في أبياتها من ثنائية لأخرى ذلك (ان الحياة أو الوجود مؤلف من ثنائيات قائمة على التضاد،فلا يستقيم فهم المعنى أو الوجود إلا من خلال هذه الثنائيات المتضادة)[38].

وفي استعمال آلية التضاد في سياق القصيدة واتخاذها وسيلة للوصول وإيصال المتلقي إلى العمق الدلالي سار دعبل بمسلكين :

الأول : انه يصف أحد الضدين بعدة أبيات وينتقل بعدها إلى الضد الآخر فلا يضع فيه المتضادين بشكل مباشر ،فيصف أفعال الكفار والفجرة من أعداء النبي محمد واله صلى الله عليه واله والمحن التي أصابت المؤمنين بفعل سوء أعمالهم ومخالفتهم لوصية رسول الله صلى الله عليه واله وإنكارهم لوصيه في ابيات وينتقل من هذا الجحد والإنكار إلى مقابلته بالتضاد وذلك بذكر المناقب التي تشهد على حقه بالوصاية بقوله :

وما سهلت تلك المذاهب فيهم على الناس إلا بيعة الفلتات

وما نال أصحاب السقيفة إمرة بدعوى تراث بل بأمر ترات

ولو قلدوا الموصى إليه زمامها لزمت بمأمون من العثرات

أخا خاتم الرسل المصفى من القذى ومفترس الأبطال في الغمرات

فان جحدوا كان الغدير شهيده وبدر واحد شامخ الهضبات

ويتم كلامه في سمات من وصف بجمعه بين الأضداد ليجمع ما بين وصف الضدين ثنائيات عدة .

ونجد مثل ذلك في تذكره للديار التي اصبحت مقفرة واندفاعه في البكاء وإجراء الدمع على قبور آل رسول الله وتعداد بعض أماكنها ووصف أخلاق آل رسول الله وسماتهم العالية ومناقبهم المتفردة ومفاخرهم في عدة أبيات يخصهم بها في وصف متفرد وذلك من قوله :

وقد كان منهم بالحجاز أهلها مغاوير يختارون في السروات

تنكب لأواء السنين جوارهم فلا تصطليهم جمرة الجمرات

حمى لم تزره المذنبات واوجه تضيء لدى الأستار في الظلمات

لينتهي بعد عدة أبيات إلى مقابلتهم ببعض من خصوا بالمثالب من أعدائهم بحسن تخلص يظهر فيه التضاد جليا في قوله :

اولئك لا أشياخ هند وتربها سمية من نوكى ومن قذرات

ستسال تيم عنهم وعديها وبيعتهم من افجر الفجرات

---

[37] ينظر : الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية ، عبد الله الغذامي ،النادي الادبي الثقافي ، جدة ، ط 1 ، 1985: 324.

[38] نحو منهج جديد : 121.

هم منعوا الآباء عن اخذ حقهم وهم تركوا الأبناء رهن شتات

فيتم المعنى بابيات يصف بها أعداءهم ويذكر فيها مثالبهم ،ومابين الوصفين ثنائيات عدة فيأتي التضاد في قصيدته لطيفا تتداعى فيه المعاني إلى الذهن دون تكلف او عناء .

والثاني : ويضع فيه الضد بازاء الضد الآخر في نفس سياق الكلام فيصف حال آل رسول الله بمقابل حال أعدائهم في متضادات متقابلة بشكل مباشر يتسبب في أحداث حركة في السياق الشعري ، نحو قوله :

بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
سأبكيهم ما ذر في الأرض شارق ونادى منادي الخير في الفلوات
وما طلعت شمس وحان غروبها وبالليل ابكيهم ، وبالغدوات
ديار رسول الله اصبحن بلقعا وآل زياد تسكن الحجرات
وآل رسول الله تدمى نحورهم وآل زياد آمنوا السربات
وآل رسول الله تسبى حريمهم وآل زياد ربة الحجرات
وآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد غلظ القصرات

إذا وتروا مدوا الى واتريهم اكفا عن الأوتار منقبضات

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع قلبي إثرهم حسرات

ونلاحظ هذه المقارنة المستمرة بين آل رسول الله وال زياد بنين وبنات ومنه الانتقال إلى المقارنة بين آل رسول الله وديارهم وبين واعدائهم من آل زياد وسواهم ومن ثم المقابلة بين سمات الطرف الاول وما له من حق وسمات الطرف الاخر وما عليه من باطل، ليشكو فيها ظلامة آل البيت وليوضح مقدار الفاجعة التي حلت بهم وتكرار الظلم الذي طالهم وامتداده. ويتضح في هذا السياق تبادل الاشطار فتارة البدء بال لرسول وأخرى بال زياد وهذه الحركة المثيرة التي يحدثها وجود هذه المتقابلات المباشرة فهي تكسر اطواق الجمود وتبدد الفتور والسكون لجريان النص على نسق واحد ، اذ (تفاجئ ذهن المتلقي بالأضداد التي تسبب-عند إدراك معانيها –نوعا من الحركة الذهنية وذلك عندما ينتقل الذهن من أقصى نقطة إلى أقصى نقطة من المعاني ويحاول الربط بينها)[39].

ويتضح اثر هذه المتقابلات في تحقيق الغرض الاساس من التائية وهي رثاء اهل البيت عليهم السلام واستلهام الدلالات العميقة الكامنة في الحزن المنبعث من ابياتها ،اذ استهل دعبل تائيته بكلمات تقطر حزنا واسى على أهل البيت عليهم السلام وذكر الديار التي تنعى ساكنيها وتبكي على ما حل بهم وهي التي كانت تزهو بتلاوتهم للقران ،ويتحسر على تلك الليالي والأيام بقوله :

ليالي يعدين الوصال على القلى ويعدي تدانينا على الغربات

ثم يقارن الليالي بالأيام وجورها بعد النبي صلى الله عليه واله وسلم على آل بيته الطيبين الطاهرين بقوله :

ألم تر للأيام ما جر جورها على الناس من نقص وطول شتات

ويتحول من ثنائية الليالي والأيام وما فيهما من قلى ووصال وغربة وتدان ونقص وطول شتات إلى ثنائية أخرى مقترنة بها وهي ثنائية الحب والبغض فيبدأ بوصف هذه الثنائية فرضا أوجبه الله سبحانه على المؤمنين كافة بعد الصوم والصلاة، ووسيلة للتقرب بحب آل رسول الله وبغض أعداءهم إلى الله سبحانه،ويسجل ذلك في تائيته بقوله :

فكيف ؟ ومن أنى يطالب زلفة إلى الله بعد الصوم والصلوات
سوى حب أبناء النبي ورهطه وبغض بني الزرقاء والعبلات

[39] نحو منهج جديد :129-130.

مما دفعه لتخيرهم بوصفهم الأئمة الراشدين الذين أمر الله بمودتهم وطاعتهم والتسليم لهم فلا يكون ذلك إلا لمن بصره الله وزاده يقينا بقوله :

تخيرتهم رشدا لامري ،فانهم على كل حل خيرة الخيرات

وينتقل إلى وصف تناقضات عدة في المجتمع أحدثها ترك العمل بهذه الفريضة بتعابير جردت عن محتواها وألفاظ أفرغت معانيها فتحولت إلى مفارقات يصعب تحملها بقوله :

تراث بلا قربى ،وملك بلا هدى وحكم بلا شورى ،بغير هداة

وهو يرى عظم المصيبة فيصفها بالرزايا التي قلبت تلك الأمور رأسا على عقب فحولت حمرة الأفق إلى خضرة وطعم الفرات السائغ شرابه ألي ملح أجاج في قوله :

رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة وردت أجاجا طعم كل فرات

لقد حقق التضاد اللوني الذي أحدثه بين الأخضر والأحمر بعدا جماليا في قصيدته وهو ما عرف ب(طباق التدبيج) الذي خصه البلاغيون بالألوان التي تذكر بقصد الكناية أو التورية ، فلا يشتمل التضاد على الثنائيات المتقابلة التي يقدمها المعجم اللغوي فحسب بل يمتد إلى الثنائيات التي يفرز السياق طبيعتها التقابلية ولو لم يكن فيها حقيقة التضاد إلا ان العمق الدلالي أتاح للسياق إنتاج هذا التضاد ،إذ يجمع دعبل بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق في تضاد لوني متفرد ولهذا التضاد بين الألوان أثره في إنتاج دلالات عميقة ومعان كنائية تنحاز إلى الضدية .[40]

ثم يعود الشاعر إلى ثنائية الحب والبغض ذلك(ان الشاعرية لا تقوم إلا على أساس التطرف في الحب والبغض، وقد جمع دعبل بين العاطفتين : فكان يوجه قسوته إلى الخلفاء وكان يوجه رقته آلي أهل البيت)[41]،فالحب والبغض عاطفتان متضادتان نابعتان من مكامن نفسه بازاء ما اتضح من صفات الطرفين .

ويخص من جمع بفضائله العجيبة بين الأضداد ألف بين الأشتات الذي يصفه بقوله :

أخا خاتم الرسل المصفى من القذى ومفترس الأبطال في الغمرات

كما يصف آل رسول الله جميعا بهذا الوصف ليوضح التضاد من جانب آخر وهو انه لا يقابل وتر أعدائهم وقطيعتهم بالمثل بقوله :

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم اكفا عن الأوتار منقبضات

ذلك بازاء ما اتضح من مثالب اقترنت بأعدائهم الذين يصف افعالهم بقوله :

هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه ومحكمه بالزور والشبهات

ثم يلتفت إليهم في خطابه موضحا في تضاده الفارق بين الطرفين في ثنائية الأيمان والكفر وذلك لأن (بنية التائية ،كانت دائرة على محورها الإيماني ،وبعدها العقيدي .)[42] بقوله :

نجي لجبريل الأمين ،وانتم عكوف على العزى معا ومناة

ويتذكر تلك المناقب ومنها يتذكر منازل أصحابها ورسوم ديارهم ويرسمها في صورة جميلة يجمع فيها المتضادات بقوله :

---

[40] ينظر : البلاغة العربية قراءة اخرى ، محمد عبد المطلب ،الشركة المصرية العالمية ،القاهرة ،ط 1 ،1997 :359 .

[41] المدائح النبوية في الأدب العربي: 97.

[42] الخطاب الديني في العصر العباسي :81.

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات فتلك

المنازل التي كانت مدارس تتلى بها آيات القران ويهبط فيها الوحي أصبحت خالية ومقفرة بعد ان كانت تنبض بالحياة ، ويدفعه تذكره لهذه المناقب إلى البكاء على ال رسول الله وذكر بعض ذوي الفضل منهم من ورثة علم النبي والى البكاء على رسوم ديارهم التي أصبحت مقفرة بعد أن عفاها جور أعداء النبي صلى الله عليه وال وسلم الذين عبروا عن حقدهم الدفين الذي واجهوا به ابناءه ورهطه بقوله :

وكيف يحبون النبي ورهطه وهم تركوا أحشاءهم وغرات

لقد لاينوه في المقال واضمروا قلوبا على الأحقاد منطويات

ونلاحظ الأثر الأسلوبي الذي يحدثه ورود هذه المقابلات المتضادة في السياق من الوصول إلى معان عميقة لا يمكن الوصول إليها باللفظ ،إذ يوصله تذكر تلك المنازل واسماء أصحابها ومناقبهم إلى العودة إلى ثنائية الحب والبغض لآل المصطفى ولكن بشكل اعمق ،اذ يدفعه ذكر هذه الثنائيات إلى معرفة سبب هذا العداء والبغض الذي ظهر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقد كان هذا العداء موجودا ولكن في صفوف المنافقين الذين تظهر على ألسنتهم غير ما تضمره قلوبهم ، فالطباق في النص الشعري يحقق (دلالة معنوية واضحة لما له من قدرة على إظهار مشاعر تضفي على النص جوا مشحونا بالحركات الثنائية الضدية التي ترتبط بالموقف الفكري والوجداني الذي يرمي إليه الشاعر ويعززه.)[43]

وتستمر ثنائية الحب والوصال والبغض والهجر في قوله :

احب قصي الرحم من اجل حبكم واهجر فيكم أسرتي وبناتي

واكتم حبيكم مخافة كاشح عنيد لأهل الحق غير موات

وتعكس ألفاظ دعبل وصوره في تائيته حقيقة مشاعره ويكشفان عن مقدرته وصدقه الفني المتأتي من اتفاق ما يستشعره وما يؤمن به ويعتقده من جانب والواقع الذي يعيشه من جانب آخرووضوح ذلك الاتفاق في النتاج الأدبي بما يعكس حقيقة مشاعره ويكشف عن مقدرته الفنية ، ولذلك نرى تنويعه للخطاب الشعري واستخدامه التضاد متسائلا ومجيبا بقوله :

فكم حسرات هاجها بمحسر وقوفي يوم الجمع في عرفات

الم تر للأيام ما جر جورها على الناس من نقص وطول شتات

ومن دول المستهترين ،ومن غدا بهم طالبا للنور في الظلمات

ويكرر هذه الصيغة في قوله :

أَلم تر اني من ثلاثين حجة أروح أغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم في غيرهم مقتسما وايديهم من فيئهم صفرات

وقوله :

فكيف أداوي من جوى لي والجوى أمية أهل الفسق والتبعات

وعند الاقتراب من نهاية القصيدة تتكامل الفكرة التي اقام على أساسها المتقابلات السياقية التي أضفت على السياق حركة متناسقة ناتجة عن جدلية التضاد المعنوي الذي يمنح النص عمقا دلاليا،،(إذ تتحرك وحدات القصيدة إلى اكتمال التشكل، في الوقت الذي تتحرك فيه إلى اكتمال كشف الواقع. تخرج الحركة الأولى المتلقي

[43] الصورة الفنية في شعر يوسف الثالث :83.

من نعاسه إلى رشده ،وتوصله الحركة الأخيرة إلى من ينبغي ح السعي إليهم ،وتكشف الحركات التي تلي الحركة الأولى وتسبق الحركة الأخيرة للمستيقظ الثائب إلى رشده ،الواقع)[44].

ففي تائية دعبل عدة ثنائيات تتحرك جميعها باتجاه كشف ثنائية ضدية كبرى تدور في فلكها وهي ثنائية اليأس والأمل يمثل طرفها الأول آل رسول الله وصفاتهم ومناقبهم وحقهم السليب وظلامتهم المتكررة وهم أهل الفضائل والمناقب ويمثل طرفها الثاني أعداءهم وغاصبي حقهم والواقع المرير بإمساكهم بزمام الأمور مع مالهم من مثالب يندى لها الجبين، فان كان الحزن عاطفة إنسانية لا حدود لها ولا درجات فانه في قصيدة دعبل ثورة مكتومة من اجل تحقيق الانتقام والأخذ بالثار واصلاح التناقض الحاصل في الوقت الذي لا يتسنى له ذلك .

وهذا ما يتضح في أبياته الأخيرة التي يختم بها قصيدته بعد يأسه من الفراق،فعلى الرغم من الحزن الشديد الذي يبدو في تائية دعبل لظلم آل رسول الله، واللوعة التي تتصاعد فيها لتجدد هذا الظلم ،واليأس من تغيير الواقع الفاسد،يرى دعبل في تائيته بارقة أمل تلوح في سماء المستقبل بظهور المنقذ الذي يضع الحق موضعه ويبطل الباطل فيميز الحق من الباطل و يغير الواقع المر فيعلل النفس ويؤملها بالأمل المعقود فالشاعر لا يقارن في تضاده بين ماض وحاضر بل يتجاوز ذلك إلى المستقبل والفرج الموعود الذي ينتقل بالعالم من الشقاء إلى السعادة .

فيقول :

فلولا الذي أرجوه في اليوم اوغد تقطع قابي اثرهم حسرات

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

ويمتزج في مرثية دعبل اليأس المنهار بالأمل المتلعف وهو مما عد من غريب قصائد الرثاء باعتبار ما تجمعه من فكرة متضادة ،[45]وهو ما يتوضح في أبياته الأخيرة التي يختم بعا قصيدته بعد ياسه من الفراق.

ويرتبط التضاد عادة بتجربة المبدع الشعرية وبدون ذلك لا يحقق الغرض المطلوب في إيصال متلقيه إلى العمق الدلالي فيما يستخدمه من ألفاظ وتعابير فهذا التوظيف لآلية التضاد يعكس وعي المنشئ وبراعته في انتقاء الألفاظ وتوظيفها في إبراز التشكيل الدلالي ، فيختم قصيدته بمخاطبة لنفسه وتبرز في خطابه ثنائية البعد وما هو آت، والقوة والشتات ،والقرب والتأخير،والموت والحياة بعده بالقول:

فيا نفس طيبي ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ما هو آت

ولا تجزعي من مدة الجور ،إنني أرى قوتي قد آذنت بشتات

فان قرب الرحمن من تلك مدتي وأخر من عمري بطول حياتي

شفيت ،ولم اترك لنفسي رزية ورويت منهم منصلي وقناتي

فاني من الرحمن أرجو بحبهم حياة لدى الفردوس غير بتات

---

[44] دراسات في التراث الأدبي : 106.

[45] **الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام : 208.**

عسى الله ان يأوي لذا الخلق انه إلى كل قوم دائم اللحظات

ويعكس خطاب الشاعر مع نفسه الحركة النفسية الداخلية لديه فيشكو من حسرات نفسه وما يعانيه لإيضاح اثر المصائب في نفسه وتمكنها منه ثم يطمئن نفسه ويطيبها ويبشرها بالفرج القريب للخلاص من الجور وشفاء غيظها بالثار لمرثييه ويمنيها مرة ثانية بالفردوس والنعيم الذي ينتظر محبي أهل البيت عليهم السلام والذل والهوان الذي قدر لاعدائهم ومنكريهم ،هذه النفس التي يجعلها فداء لمرثييه كهول وفتية بقوله :

بنفسي انتم كهول وفتية لفك عناة ، أو لحمل ديات

وشاعرنا لايسير في ثنائياته على وتيرة واحدة فيكون التضاد فيها باعثا للملل في النفس فيغير في أساليبه وصيغة خطابه فهو بين امر ونهي واثبات ونفي مع استخدامه اسلوب النداء ليحافظ على يقظة المتلقي ومشاركته له ، فأدوات النداء (تنبه السامع وتثير عقله ووعيه ووجدانه فيبقى مع المتكلم حتى يتم كلامه) [46] ، زيادة على استثارته بالنداء انتباه المتلقي منزلة مرثييه كما في قوله :

فيا وارثي علم النبي ، وآله عليكم سلام دائم النفحات

وشاعرنا (لايقول ذلك جزافا ولا يقوله من فراغ ،وانما يصدر عن حركة إيمائية تزخر من التضمين الدلالي،فالخطاب واضح الدلالة على ان الميراث هذا ميراث علم ،هذا الميراث ما كان إلا لخاصة الخاصة لقرابة رسول الله ،وهم آل البيت)[47]..

وللمقابلة أو الطباق في تائية دعبل صورا وأشكالا تزيدها وضوحا وتقوي التضاد القائم في المعاني، وتبرز المتضادين بارزين للعيان بصورة تجلب الانتباه ، اذ يورد دعبل في تائيته للطباق صورا أربعا ،فيأتي بالطباق بين اسمين متضادين كمطابقته بين الآباء والأبناء بقوله :

هم منعوا الآباء عن اخذ حقهم وهم تركوا الأبناء رهن شتات

أو يطابق بين فعلين كممطابقته بين (يلحظن)و(يسترن)في قوله:

وأذ لهن يلحظن العيون سوافرا ويسترن بالأيدي على الوجنات

أو يطابق بين فعل واسم كمطابقته بين الإضاءة والظلمة في قوله :

حمى لم تزره المذنبات ،واوجه تضيء لدى الأستار في الظلمات

أو يطابق بين حرفين كمطابقته بين حرفي (في)و (من) في قوله :

أرى فيئهم في غيرهم مقتسما وايديهم من فيئهم صفرات

وهذه الحروف لا يظهر معناها إلا من خلال استخدامها في سياق الكلام (فللحروف معان متعددة قد تضاد وقد تتداخل وقد تلتقي والمرجع في ذلك هو الاستعمال)[48].

---

[46] قراءات في الشعر الاندلسي :131.

[47] الخطاب الديني في العصر العباسي :79 .

[48] علم البديع : 116 .

وقد يأتي بالطباق واضحا جليا كما في ذكر آل محمد وفدائهم بنفسه كهولا وفتية في قوله :

بنفسي انتم من كهول وفتية لفك عناة ،أو لحمل ديات

وقد يأتي به خفيا لخفاء التضاد فيه بالجمع بين أمر وما يتعلق به بمقابلة كما في قوله :

لقد لاينوه في المقال واضمروا قلوبا على الأحقاد منطويات

فيذكر انطواء القلوب على الأحقاد ويجعل هذا الوصف بديلا للقسوة المقابلة للين في المقال .

وقد يكون طباقه إيجابا وذلك حين يستخدم معنيين متضادين مثبتين معا كما في جمعه بين المعروف والمنكر في قوله :

فان قلت عرفا أنكروه بمنكر وغطوا على التحقيق بالشبهات

وقد يأتي بطباقه سلبا فيأتي باللفظ مرة مثبتا وأخرى منفيا كما في قوله :

ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف للأيام والسنوات

وقد يأتي الطباق في تائية دعبل بألفاظ استعملت في معانيها الحقيقية كما في تضاده بين الآباء والأبناء والمنع والترك في قوله :

هم منعوا الآباء عن اخذ حقهم وهم تركوا الأبناء رهن شتات

وقد يأتي دعبل في تائيته بألفاظ تستخدم في معان مجازية وهذا واضح في تائيته فعلى الرغم من إلقائها في حضرة ولي الله إلا انه يعمد أحيانا إلى التعبير بالكناية (هن وهنات) عما لايمكن التصريح به كما في قوله :

ولم تك إلا محنة كشفتهم بدعوى ضلال من هن وهنات

ويكرر هذا التضاد الكنائي بين (هن وهنات)في قوله :

فان لم تكن إلا بقربى محمد فهاشم أولى من هن وهنات

ومن خروجه بالألفاظ إلى معان مجازية في التضاد استخدامه للكناية في وصف نساء آل زياد المترفات المستقرات في منازلهن (ربة الحجلات)عند مقابلتهن بنساء آل رسول الله المسبيات في قوله:

وال رسول الله تسبى حريمهم وآل زياد ربة الحجلات

ولهذا التوافر التضادي اثره في إثراء النص وجعله اكثر عمقا في الدلالة ،[49] فمن شأن تكرار التضاد ان يكون وسيلة مهمة لتحقيق العمق الدلالي ونقرا للشاعر قوله :

حمى لم تزره المذنبات واوجه تضيء لدى الأستار في الظلمات

وتقوم هذه الأبيات على أساس الصورة المتضادة في (الأوجه ،الأستار) و(الإضاءة،الظلمات) التي ساعدت على رسم صورة لما يعانيه الشاعر فاظهرت الطباقات جوا من الشعور بالحزن واالاحساس بلوعة الفراق للبعد عن تلك الاوجه (فالشاعربجمعه الاشياء المتضادة يخلق صورة فنية تقوم على إثارة عقل المتلقي وتحفيزه على الاستيعاب وخلق الانفعال ،فوظيفة الطباق إذا لا تتوقف عند حدود تزيين الصورة ،بل تتعداه إلى ما يجعل الأشياء داخل الصورة تبرز وتظهر مقدرتها على تأكيد المعنى وجلب الانتباه ومنح إيحاءات ودلالات عميقة للنص الشعري)[50].

والطباق جمع بين متضادين قد ينزلهما الذهن بمنزلة المتضايفين فالذهن يستحضر الضد عند مجيء الآخر فورا،[51]كالسواد والبياض والحركة والسكون والإيمان والكفر،وهذاالاستحضار يمثل نوعا من التكرار فان كانا متضادين على مستوى الأسطح فالعمق الدلالي يربط بينهما على التناسب،وهو ما أطلق عليه (التناسب في المعاني).[52]

وقد يعود جانب من العمق الدلالي في مرثية دعبل الناتج عن استخدامه آلية التضاد إلى هذه الطبيعة فبذكره مناقب أهل البيت عليهم السلام يستحضر الذهن مثالب أعدائهم ثم يعود الشاعر لذكر تلك المثالب في قصيدته فكأنه كرر التضاد مرتين وعمق دلالة هذا النفس الشعري ، (وتزداد الطبيعة التكرارية في الطباق عندما تتعدد مفرداته ليدخل دائرة التقابل،حيث تتشكل البنية باكثرمن طرفين متقابلين).[53]

هذا التضاد الممتد حتى في الحالة الشعورية الواحدة التي يتخللها الرثاء وهي حالة البكاء واظهار الحزن في مرثيته اما بالبكاء واللوعة بشكل مباشر أو باستعمال الخيال الشعري الجميل وذلك للمبالغة في تصويرالاحزان حيث يحمل هذا البكاء المستمر في طياته التضاد الممتد طيلة اليوم عند طلوع الشمس وغروبها وبالليل وبالغدوات إذ يقول :

سأبكيهم ما ذر في الأرض شارق ونادى منادي الخير بالصلوات

وما طلعت شمس وحان غروبها وبالليل ابكيهم ،وبالغدوات

وهذه العواطف الاليمة التي يصورها دعبل في تائيته تتوافق مع ما قيل في شرط الرثاء (اما الرثاء فيجب ان يكون شاجي الاقاويل ،مبكي المعاني ، مثيرا للتباريح ،وان يكون بألفاظ مألوفة سهلة)[54] زيادة على ان هذا البكاء المستمرلا لغاية ذاتية ولا للتعبير عن عواطف شخصية بل غايته تهذيب النفوس وتنقية الارواح بالفضائل المتفردة،[55] والمنزلة العظيمةلاهل البيت عليهم السلام .

وقد اختار دعبل لقصيدته قافية التاء للتعبير عن حالة الحزن والبكاء التي يعيشها ومحبته لمرثييه ، فاجتمعت في قصيدته الحسرات والعبرات والزفرات ليبث عبرها أحاسيسه ومشاعره الممتزجة بالثنائيات الضدية

---

[49] ينظر :الإسلام والأدب :محمود البستاني ،المطبعة ستارة ،قم ، ط1 ،1422 : 158 .
[50] الصورة الفنية في شعر يوسف الثالث ، مجلة المورد ،العدد الرابع ، 2007 :83 .
[51] مفتاح العلوم ، السكاكي ، تحق:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط 1 ،2000 :110.
[52] المثل السائر ،ابن الأثير ، تحق : احمد الحوفي ،بدوي طبانة ، دار الرفاعي ،الرياض ، ط 2 ، 1984 : 3/143.
[53] البلاغة العربية قراءة أخرى :356.
[54] منهاج البلغاء وسراج الادباء ،حازم القرطاجني ،تحق :محمد الحبيب بن الخوجة ،دار الكتب الشرقية ،تونس ،1966 :351.
[55] ينظر : اصول النقد الادبي :183- 184.

،وهذا ما اتضح في اول قصيدته ،اذ بدأها بالزفرات التي تتجاوب فيها النوائح المتضادة مفصحة وغير مفصحة بقوله :

تجاوبن بالارنان الزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

ثم اتبعها بالبكاء والعبرات لرؤيته رسوم ديارهم في قوله :

بكيت لرسم الدار من عرفات واذريت دمع العين بالعبرات

ليعود إلى الحسرات الدائمة التي يستشعرها لرؤيته حقهم المسلوب منذ ثلاثين حجة في ثنائية الغدو والرواح فيقول :

ألم تر اني من ثلاثين حجة أروح أغدو دائم الحسرات

ويكرر هذه الحسرات التي تقطع قلبه لولا اقتران الرجاء بتضاد الزمان بين اليوم وغد بقوله :

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع قلبي إثرهم حسرات

ثم يعود لذكر العبرات التي يلقاها في جدالهم وعدم جدوى اقناعهم ويصور ذلك بمتضادات كونية مستحيلة خارجة عما قدر لها بنقل الشمس وهي التي قدر لها الله سبحانه ان يكون لها ان تجري بمستقر لها ،أو اسماع الاحجار الصلدة التي لاتسمع بقوله :

سأقصر نفسي جاهدا عن جدالهم كفاني ما القى من العبرات

أحاول نقل الشمس من مستقرها وإسماع أحجار من الصلدات

وفي مقارنة دعبل بين حالات متباينة في تائيته باستخدامه التضاد تبرز شاعريته وذلك بإظهار الفجوة الواسعة بين طرفي التضاد ،ولاسيما (ان التضاد هو المنبع الرئيس للفجوة :مسافة التوتر وبالتالي الشعرية)[56] .

حتى يصل إلى الغصة التي تخنق صدره نتيجة الزفرات التي تخلق ثنائية الضيق والسعة في الأضلاع فتجعل الضيق يحل بديلا عن الرحب والسعة ،فيختم قصيدته بالزفرات ذاتها التي كان قد افتتح بها قصيدته بقوله :

قصاراي منهم ان اؤب بغصة تردد بين الصدر واللهوات

كأنك بالأضلاع قد ضاق رحبها لما ضمنت من شدة الزفرات

ويتوسل دعبل بآلية التضاد في ذكر أسماء مرثييه ممن شهد التاريخ مناقبهم ومقابلتهم ببعض اسماء أعدائهم،إذ ألحت على دعبل أسماء كثيرة إلحاحا نلحظ فيه قوة العاطفة وتوهج المشاعر،واولها رسولنا الكريم وابنته فاطمة صلوات الله وسلامه عليهما،وترديد هذه الاسماء يشير إلى تمثل اشخاصها في ذاكرته واستحضارهم في مخيلته ،فنجد في تائيته (علي ،الحسين ،جعفر ،حمزة ،السجاد،...)مثلما نجد من وقفوا بوجههم من أشياخ هند وسمية من قبائل تيم وعدي وال أمية .

ويمكننا عد الزمان والمكان محاور رئيسة في تائية دعبل اتضحت فيهما آلية التضاد حتى شكلا معا ثنائية ضدية عند تلاقيهما في القبر حيث يصبح الزمان والمكان أمرا نسبيا .

وللتضاد الزمني دورا كبيرا في خدمة الغرض الرئيس من القصيدة في رثاء أهل البيت عليهم السلام فيعبر عن لوعته وحزنه بتكرار البكاء في الماضي والحاضر والوعد بان يكون نهجا مستقبليا في أزمان متضادة بقوله :

سأبكيهم ما ذر لله شارق ونادى منادي الخير بالصلوات

وما طلعت شمس وحان غروبها وبالليل ابكيهم ،وبالغدوات

[56] في الشعرية ، كمال ابو ديب ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ط 1 ، 1987 : 46 .

فمن التضاد الزمني جمعه بين ماهو ماضي وما هو آت في أول القصيدة بقوله :

يخبرن بالأنفاس عن سر انفس اسارى هوى ماض واخر آت

وذكره للأيام وما تجره من ثنائية في قوله :

ألم تر للأيام ما جر جورها على الناس من نقص وطول شتات

وفي ذكره لليالي وما تخلقه من ثنائيات في قوله:

ليالي يعدين الوصال على القلى ويعدي تدنينا على الغربات

ويتكرر ذلك في دعائه للنبي بالصلاة علي في قوله :

وصلى عليه الله ماذرشارق ولاحت نجوم الليل مبتدرات

وفي عدم يأسه ورجائه في قوله :

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدا تقطع قلبي اثرهم حسرات

وفي تطييب نفسه وطمأنتها بالفرج القريب في قوله :

فيا نفس طيبي ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ما هو آت في

أما البعد المكاني فيبدو واضحا في تكرار الشاعر للديار والمنازل ومقابلتها عند الضدين لوصف الاسى الناتج عن الجور والظلم الذي نال ال رسول الله عليهم السلام وادى الى اعفائها في الوقت الذي لم تتضرر فيه منازل اعدائهم ويعزي دعبل الزهراء في استشهاد الحسين عليهما السلام، فنجد التضاد المكاني واضحا في الموت عطشا في مكان لا يجوزالظمأ لمن جاوره من جانب، وفي ندبتها لولدها وأصحابه عليهم السلام الذي يصفهم بنجوم سماوات إلا انهم سقطوا بأرض فلاة بقوله :

افاطم لو خلت الحسين مجدلا وقد مات عطشانا بشط فرات

إذن للطمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات

افاطم قومي يا ابنة الخير واندبي نجوم سماوات بأرض فلاة

ان ترديد اسم الزهراء ومناداتها بمناد مرخم (افاطم) في ثلاثة أبيات يدل على إلحاح هذا الاسم على الشاعر ويذكر اسمها بمناد مرخم ليشير إلى لوعته بازاء مصابها ، ويضع هذا الترديد وإنهائه بالتضاد القائم آخر البيت مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشاعرفيضيئها ويفصح عن منزلة الزهراء في نفسه ومشاعره بازاء مصيبتها في ولدها وعترته.

ويثير دعبل العبرات الشجية بتذكره أماكن استقروا بها (الحجاز) وأخرى شهدت اداءهم للفرائض كفريضة الحج (عرفات ،منى ،الخيف ،الجمرات)،واماكن شهدت بعض ماثر ال البيت من بطولات ومعارك ارتفعت بها راية الاسلام وكانت سببا في حقد اعدائهم عليهم (بدر ،خيبر ،حنين)وأماكن أخرى ضمت قبورهم (كوفان ،طيبة ،بغداد،باخمرا ،الجوزجان)ليتضح لنا العمق الدلالي المتأت من تضاد خفي في ثنائية الحياة والموت.

وتتحد في لفظ (القبر) ثنائية الزمان والمكان بعد ان شكلا بعدين من أبعاد القصيدة ، فهذا المكان يشير إلى النتيجة الحتمية التي يؤول إليها الإنسان ويعد شاهدا للعبرة والاتعاظ الذي لا يحتاج معه إلى كلام (وفي القبر يتوحد الزمان والمكان ،فيتحولان لشيء واحد ،فالقبر تدوين لحادثة ووقت في زمن مت وانتهت بالموت ،ولمكان تلك الحادثة ... وفي القبر دمج لمظاهر الأمكنة الأخرى ففيه تتحول الأمكنة السفلية إلى أمكنة عليا ،والأمكنة المنخفضة إلى أمكنة مرتفعة،ويتحول المكان الضيق إلى مكان مفتوح عندما يتسع القبر لاحتواء مناقب المرثي او المرثية، فالقبر مكان لامتناه يضم كل انماط المكان ودلالاته)[57] ،وذلك في قوله :

قبور بكوفان ،وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتي

وقبر بأرض الجوزجان محله وقبر ببا خمرا،لدى الغربات

وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات

[57] المكان في الشعر الأندلسي ، محمد عويد الطربولي ،مكتبة الثقافة العربية ،القاهرة ، ط 1 ، 2005 : 101 .

ويتصل بعدا الزمان والمكان بظاهرة مهمة تتصل بالقبر وهي ظاهرة السقيا التي رسمت بأبعاد مختلفة في شعر الرثاء وفيها تتجسد ثنائية الأمل واليأس في الدعاء بالسقيا لقبر المرثي حيث يمتزج حنين الفراق بالأمل للتعبير عن الرؤية المسكونة بالدعاء،[58] (فبعد ان يحدد الشاعر مكان المرثي يبكيه بدموعه مستشعرا بفقده أما عن الزمان فكان الشاعر يريد من السقيا لقبر المرثي ان تستمرالحياة فيه بعد الموت ، وهي من سبيل الاستذكار المعنوي لذلك الفقد والضياع)[59] .

ودعاء السقيا في الرثاء دعاء إنساني فهو دعاء الخير والبركة والغيث لقبر المرثي، والسقيا تعني المطر الغزير الذي يروي الأرض اليابسة فينمي الزرع ويخضر الكلأ فيديم الحياة على وجه الأرض والدعاء به للاموات يشير بصورة غير مباشرة الى تمني الخير والبركة بصورة دائمة وقد يكون في الدعاء لقبر المرثي إشارة لمعنى الكرم في ذات المرثي الذي كان يمد يد العون لكل المحتاجين.[60]

لقد اتخذت قصيدة دعبل بعدا دلاليا عميقا كان التضاد وسيلة للغوص فيه والوصول آلي ما هو اعمق في الدلالة على ما هو ظاهر فقد عبر الشاعربثنائياته عن التضاد الموجود في ذلك المجتمع والتناقض الذي يسوده ،هذه الحالة التي سببها سلب الحق عن أهله وسريان الباطل فيه وتكرار الظلم وامتداده وانقلاب الأمر حتى اصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ومعاناته من هذا الظلم الأمر الذي دفعه للتعبير عما يدور في نفسه من حزن لغياب الحق وجزع لامتداد الظلم ألم لعدم قدرته على تغيير ذلك أمل بقرب الفرج وارجاع الحق لأهله.

هذا العمق الدلالي الذي تحقق في قصيدته بالتضاد الذي ساد معانيها وظهر جليا في ترجمة مشاعره والتعبير عن أحاسيسه فهو بين حب وبغض وخوف ورجاء وظلم وعدل وحزن وفرح اعلان وسر.....الخ ، حتى في حالة الحزن فهو يحزن تارة ويجزع تارة أخرى ،ويعبر عن حزنه ثم يعود ليردع نفسه عن الحزن ويبعث فيها الأمل، يتحدث عن مناقب أهل البيت عليهم السلام ومثالب اعدائهم ثم تذكره تلك المثالب بخسارته والامة جميعا لفقدهم فيعبرعن حزنه بحسرات وزفرات ثم يكتفي بغصة تتردد بين الاضلاع .

ولم يكن استخدام دعبل للتضاد من اجل تزيين القصيدة وانما جاءت لتعمق المعاني ولم يكن في مقابلاته - على كثرتها – سطحيا ولا متكلفا ولا مغاليا ولم يجتلب هذه المتضادات لإظهار مقدرته ولا بقصد استعراض مهارته الشعرية،بل كان التضاد في قصيدته نابعا من طبيعة التجربة التي يعيشها وتباين ظروف الحياة وتناقضها وعدم توافقها مع رغبته وأمانيه ومعاناته الحقيقية في حياته القائمة على الصراع بين ما يحبه و تتوق اليه نفسه بدافع من عقيدته القوية النابعة من محبة آل رسول الله ونصرتهم وبين ما يفرضه واقع الحياة عليه من الطاعة لأعدائهم وارغامه على إظهار الولاء إليهم ،بين دفاعه عن الحق ومحاولة إعلانه والدفاع عن أهله وبين عجزه عن إرجاع الحق إلى أهله فكأنه في جدالهم يحاول نقل الشمس عن مستقرها واسماع الأحجار الصلدة فهو يفعل المستحيل ، لذا كان التضاد وسيلة للوصول وإيصال متلقيه إلى العمق الدلالي

قائمة المصادر

* الإسلام والأدب ،محمود البستاني ،المطبعة ستارة ،قم ، ط 1 ،1422ه .
* أصول النقد الأدبي ،احمد الشايب ، ،مكتوية النهضة المصرية ، القاهرة ،ط 7 ، 1964 .
* الأغاني ، أبو الفرج الاصبهاني ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 2 ، 1961 .
* الأمل واليأس في الشعر الجاهلي، كريم حسن اللامي،دار الشؤون الثقافية،بغداد ،ط 1 ،2008.
* البلاغة العربية قراءة أخرى محمد عبد المطلب ،الشركة المصرية العالمية ،القاهرة ،ط 1 ،1997 .
* البيان والتبيين ،أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحق : عبد السلام محمد هارون، الخانجي ،القاهرة ،ط *5* ، *1985*.
* جدلية الخفاء والتجلي ، كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 1 ،1979.
* جمالية التشكيل اللوني ، ابتسام مرهون الصفار،عالم الكتب الحديث ،الأردن ،ط 1 ، 2010 .

[58] ينظر: الأمل واليأس في الشعر الجاهلي، كريم حسن اللامي، دارالشؤون الثقافية ، بغداد ، ط 1 ، 2008 : 157.
[59] المكان في الشعر الأندلسي : 105.
[60] ينظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام : 119.

* الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، محمود سليم محمد ،عالم الكتب الحديث ، اربد ، ط 1 ، 2009.

* الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، عبد الله الغذامي ،النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، ط *1* ، *1985*:

* دراسات في التراث الأدبي ، عبد المجيد زراط ، الغدير ، بيروت ، ط *1* ، *1998*.

* ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، تحق: ابراهيم الاميوني ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط *1* ،*1989* .
* ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، تحق : عبد الصاحب عمران الدجيلي ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط 2 ،1972 .
* الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ،بشرى محمد علي الخطيب ،كلية الآداب ،جامعة بغداد ،1971 .
* شعر الرثاء في العصر الجاهلي ،مصطفى عبد الشافي ،الدار الجامعية ،بيروت ،1983.
* الصورة الفنية في شعر يوسف الثالث ، مجلة المورد ،العدد الرابع ، 2007 .
* طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، 1968.
* الطراز ،العلوي ،مراجعة وضبط محمد عبد السلام ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط 1، 1995.
* العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة ، ط 6 ،1976 .
* علم البديع ، بسيوني عبد الفتاح ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط 2 ،2004 .

* العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق ، تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط *4* ، *1972* .
* الغدير في الكتاب والسنة ، عبد الحسين الأميني ، مركز الغدير ، بيروت ،ط 1 ،1995 .
* في الشعرية ،كمال ابو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط 1 ، 1987 .
* قراءات في الشعر الأندلسي ، صلاح جرار ، دار الميسرة ، ط 1 ، 2007 .
* المثل السائر ،ابن الأثير، تحق : احمد حوفي ، بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط 2 ، 1984 .
* المدائح النبوية في الأدب العربي ، زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ،1992 .
* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ،احمد مطلوب ، دارالشؤون الثقافية ، بغداد ، 1983.
* المكان في الشعر الأندلسي ، محمد عويد الطربولي ،مكتبة الثقافة العربية ،القاهرة ، ط 1 ، 2005 .
* مفتاح العلوم ،السكاكي، تحق:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط 1 ،2000.

* منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،حازم القرطاجني ،تحق :محمد الحبيب بن الخوجة ،دار الكتب الشرقية ،تونس ،*1966* .
* نحو منهج ، سناء البياتي ،جامعة قان يونس ،بنغازي ، ط 1 ، 1998 .
* النص الأدبي تحليله وبناؤه ، ابراهيم خليل ،الجامعة الأردنية ،عمان ، ط 8 ،1995 .
* النقائض في العصر الأموي ، جعفر صادق التميمي ، دار الكتب والوثائق ، بغداد ، 2008 .
* الوساطة بين المتنبي وخصومه :القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحق: محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، مصر، ط 4 ،1966 .